إننا حتى لو افترضنا أن الكاتب الأسباني لم يرد في البدء سوى جعل سيدي حامد أداة تقيه شر ما في الكتاب من نقد اجتماعي وسياسي، أو أنه أراد زيادة العنصر الفكاهي أو الساخر في القصة، فإن تطور العمل على مدى العشرة الأعوام من عام ١٦٠٥ إلى عام ١٦١٥م، وما تخلل تلك الفترة من ردود فعل مختلفة تضمنت صدور طبعات مزيفة من الكتاب، قد أدى إلى كثير من التعقيد أو إعادة النظر في شخصية المؤلف العربي المزعوم بشكل ربما لم يخطر ببال سرفانتيس نفسه. وفي التقديم المبدئي لسيدي حامد ما يرجح أن الكاتب الأسباني كان يُدرك المدلولات الثقافية لمؤلفه، وأنه يريد من خلاله أن يقول شيئًا ذا مغزى :

«... إذا كان هناك أي اعتراض على صدق هذا الكتاب، فإنه لابد أن يكون على أن مؤلفه عربي. فقد عرف ذلك الشعب بنزعته للكذب، ولكن حتى إن كان العرب أعداءنا، فإنه يجب أن يفهم أنهم سيكونون أكثر استعداداً للانقاص من هذا التاريخ بدلاً من الزيادة فيه..» (ص١٢).

هذا الكلام يبدو أن سرفانتيس كتبه وفي ذهنه ردود الفعل المتوقعة ممن أشار إليهم في التقديم بأنهم أولئك «الذين يضعون القوانين السياسية منذ القدم ممن يطلق عليهم الجمهور...» [١٢] دون أن ينسى الرقابة السياسية من حكومة كانت قد أصدرت في عام ١٦٠٩م آخر بيانات الطرد ضد المتبقين من مسلمي الأندلس أي قبل صدور الجزء الثاني من الرواية بستة أعوام.

في الجزء الثاني من دون كيهوته تتضح المناورة التي بدأها سرفانتيس بتقديم سيدي حامد كمؤرخ سجل أعمال فارس لامانتشا. العربي الميال إلى الكذب يتحول هنا إلى مسيحي كاثوليكي تارة، وتارة أخرى إلى «فيلسوف محمدي» قادر «بنور الطبيعة

= فهو يرى تفرد استعمال سرفانتيس لسيدي حامد في تاريخ القصص النثري، ويضيف أن مما يميز ذلك الاستعمال هو تحول الراوئي -أي سرفانتيس- نفسه إلى مستمع ينتظر ما سيحدث، وهذا يعقد البناء القصصي. أما النظرة التهميشية فمثالها ما يراه عبد العزيز الأهواني في ترجمته للرواية، حيث يقول إن نسبتها إلى سيدي حامد «من خيال المؤلف التماسا للطرافة» ويشير إلى أن هناك أمثلة كثيرة من ذلك. انظر: السيد العبقري دون كيهوته دي لامنتشا ترجمة عبد العزيز الأهواني، مج١ (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٧) ص١٠٢.

(١٢) انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية لرواية سرفانتيس ، ص٢٦.